مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (2)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (2) 2018

شخصيّة النّبيّ محمّد (ص) – قراءةٌ في نهج البلاغة
دراسة تحليليّة

الدّكتور عدنان أحمد*
منتجب عمران**

(تاريخ الإيداع 9 / 4 / 2017. قبل للنشر في 3 / 4 / 2018)

□ ملخّص □

يدرس البحث صورة الإنسان المثال ممثّلةً بشخصيّة النّبيّ محمّد (ص) عَلَى وفق ما تناولها الإمام عليّ في نهج البلاغة ، فيبدأ بعرض آراء بعض الفلاسفة في الإنسان عموماً ، والإنسان المثال بشكلٍ خاصٍّ ، ثمّ ينتقل البحثُ ليتناولَ الإنسان المثال ممثّلاً بشخصيّة النّبيّ محمّد (ص) ، وهو القسم الّذي يشغل الحيّز الأكبر من البحث . يبدأُ هذا القسم بتوطئةٍ تُجملُ صفاتِ النّبيّ محمّد (ص) ،تليها إحدى خطب الإمام عليّ الّتي ذكر فيها صفاتِ رسول الله (ص)، يُستشَفُّ من خلالها صفات الإنسان المثال ، أو ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان . ويتمّ ذلك كلّهُ بقالبٍ فنّيٍّ لغويٍّ صِرفٍ ، يسلّطُ البحث الضّوء عَلَى جزئيّاتِ النصّ المختلفة وعناصره المتعدّدة الجوانب ، ويُظهر الجوانب الجماليّة فيه، وأثر الصّورة الفنّيّة واللّغة والإيقاعِ الموسيقيِّ في تبيان صورة الإنسان المثال – محمّد (ص) ، من دون أن يغيبَ عنّا سياقها الّذي وُضعت فيه .

الكلمات المفتاحيّة : الإنسان ، المثال ، النّبيّ (ص) ، صفات ، لغويّ.

* أستاذ– قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
** طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللّغة العربيّة – كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (2)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (2) 2018

The Ideal Man "The Prophet Mohammed" (Pba) Reflected In Nahjul Balaghah Analytic Study

Dr. Adnan Ahmad*
Montajab Omran*

(Received 9 / 4 / 2017. Accepted 3 / 4 / 2018)

□ ABSTRACT □

The research looks at the image of the ideal man represented by the character of prophet Mohammed (pba) that is dealt with by Imam Ali in 'NahjulBalaghah' .

The research begins by showing the opinion of some philosophers in man in general and the ideal man in particular . then , it moves to deal with 'the ideal man' . the idea that occupies most of the research .it studies that in accordance with a preface which refines the characteristics of Prophet Mohammed supervened by one of Imam Ali`s speeches in which he mentions the characteristics of the prophet (pba)to make it abvious the characteristics of the ideal man or what the expected image of man should be that's all done in a mere, distinct , technical , linguistic from .

the research sheds alight on man's different deeds and his multi – aspect elements prevailing the appealing aspects in the speech and the impact of technical images , the language , the cadence in exposing the image of the ideal man- the prophet himself making its context and the speech it put within very clear .

key words : man , ideal , the prophet , characteristics, linguistic .

* **Professor, Arabic Department, faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**

** **Postgraduate Student, Arabic Department, faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**

مقدّمة :

النّبيّ محمّد (ص) هوَ القدوة والمثال في تمثّل مكارم الأخلاق ، والقيام بالواجبات الدينيّة والإنسانيّة عَلَى حدّ سواء ؛ لذلك فقد أفاض الإمام عليّ – كرّم الله وجهه – في ذكر صفات رسول الله (ص) ، والحديث عن كرم منبته ، واصطفاء الله تعالى له من بين الخلق جميعهم ، وعن زهده وازدرائه اَلْدُّنْيَا ، وفي المقابل أدائه ما أوكل إليه حقّ التّأديةِ والخضوع لأوامره والتّسليم بها ، ليكون قدوةً للبشريّةِ ورحمةً بها ولها ، قال تعالى :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْن﴾[1] .

أهميّة البحث وأهدافه :

تكمن أهميّة البحث في صفات النّبيّ (ص) في محاولةِ تسليطِ الضوءِ عَلَى صفاتِ الإنسانِ المثالِ الخَلقيّة والخُلُقيّة ، والكشف عن بعضِ ما تختزنُهُ من معانٍ ودلالاتٍ خبيئةٍ ، فيدرسُ البحثُ صورة الإنسان المثال الّذي جمع في شخصه الصّفات الدينيّة والدنيويّة ممثّلة في شخصيّة النّبيّ (ص)، وتظهر أهميّة البحث أيضاً فيما حملته تلك الشّخصيّة من رسائل دينيّة رحبة ، نقلها الإمام عليّ نقلاً أميناً صادقاً ، ينمّ عَلَى معرفةٍ دقيقةٍ برسول الله (ص) ، لما تربطه بهِ من روابط النّسب والعقيدة والفكر.

وتقدّم الدّراسةُ أنموذجاً إحدى خطب الإمام عليّ ، يرسم فيها صورة الإنسان المثال من خلال صفات النّبيّ (ص) بأساليب تعبيريّة تظهر مقدرة الإمام عليّ – كرّم الله وجهه – وبراعته الفنّيّة في تطويع اللّغة والتّعبير عن المعاني والأفكار.

منهجية البحث :

يعتمد البحث في دراسته المنهج الوصفيّ، مبرزاً صفات النّبيّ (ص) كما وردت في النّهج ، متوخّياً إبراز الأساليب التّعبيريّة الّتي توسّل بها الإمام عليّ (ع) إلى تقديم صفات النّبيّ محمّد (ص) ، فيلامس الجانب اللغويّ ، ويقف عَلَى جماليّات التراكيب ، ساعياً إلى إظهار طاقاتها الإيحائيّة، كما يتناول بالدّراسة الإيقاع الموسيقيّ ، فيعرض للنّاحية الصّوتيّة ضمن الكلمة الواحدة من خلال تآلف الحروف وتنافرها، ثمّ مدى انسجام الكلمة مع غيرها من الكلمات ضمن التّركيب اللغويّ الواحد ، ولابدّ من الوقوف عَلَى الجانب البديعيّ لإبراز ما ترسمه ألوان البديع المختلفة من زخرفةٍ لفظيّةٍ إيقاعيّةٍ تجلّي المعنى ، وتظهره جميلاً عذباً .

توطئة :

لقد كانَ الإنسانُ مثار بحثِ كثيرٍ من الفلاسفةِ والمفكّرينَ عَلَى مدى عهودٍ طويلةٍ ، فتناولوا الإنسان المثال في خضمّ سعيهم الحثيث للإضاءةِ عَلَى حقيقةِ هذا الكائن – المحور أساسِ الحياة وغايتها ، وكان لهم في ذلك مذاهب شتّى ؛ إذ يتحدّث الشّريف الجرجانيّ عمّا سمّاه (الإنسان المثال) ، فهو برأيه "الجامعُ لجميع العوالم الإلهيّة والكونيّة الكلّيّة والجزئيّة ،وهو كتابٌ جامعٌ للكتب الإلهيّة والكونيّة؛ فمن حيثُ روحُهُ وعقلُهُ كتابٌ عقليٌّ مسمّى بأمّ

[1] **الأنبيّاء – 107** .

الكتاب ، ومن حيثُ قلبُهُ كتابُ اللّوحِ المحفوظِ ، ومن حيثُ نفسُهُ كتابُ المحوِ والإثباتِ ، فهو الصّحفُ المكرّمةُ ، المرفوعة المطهّرة ، الّتي لا يمسّها ولا يُدرِكُ أسرارها إلّا المُطهّرون من الحجبِ الظّلمانيّةِ"[1].

إذنَ فـ "الإنسانُ الكاملُ" برأي الجرجانيّ هو الإنسانُ الّذي لا يمكنُ أنْ يدخلَ الخللُ إلى فعلِهِ أو تفكيرِهِ ، فهو صورةٌ للكمالِ ، روحُهُ وعقلُهُ مثالٌ يُحتَذى ، وكتابٌ جامعٌ هو أمّ الكتاب ، وقلبُهُ حافظٌ يحفظُ الفضائلَ والخيراتِ ولا يمكنُ أن يزولَ شيءٌ منها كما اللّوحُ المحفوظُ لا يستطيعُ أحدٌ محوَ حسنةٍ أو سيّئةٍ منهُ ، وهذا يظهرُ أنَّ نظرةَ الجرجانيّ الفلسفيّة للإنسان هي نظرةٌ إلى روحهِ وملازمتها لبدنِ الإنسان: "فنسبةُ العقلِ الأوّل [2]إلى العالم الكبيرِ وحقائقهِ بعينها نسبة الرّوح الإنسانيّ إلى البدن وقواه" [3]، في حين يرى أبو البقاء الكفويّ أنّ الإنسان ليس هو هذا البدن ، بل المعنى القائم فيه : "واعلم أنّ الإنسان هو المعنى القائم بهذا البدن ، ولا مدخل لبدن في مسمّاه ، وليسَ المشار إليه بـ(أنا) الهيكل المحسوس ، بل الإنسانيّة الّتي هو صورتها النّوعيّة الحالّة في مادّتها المحصّلة لنوع البدن الإنسانيّ"[4].

وغير بعيد عن سابقيه يرى الدّكتور عبد المنعم الحفنيّ أنّ الإنسان هو "الكون الجامع ، وهو موجودٌ ليس بجسمٍ ولا جسمانيّ"[5]؛ أي إنّه يختصر الوجود والعالم المثال ، ويعكس صورته بروحه وليس بجسمه .

النّبيّ محمّد (ص) في مرآةِ نهجِ البلاغةِ :

لقد أفاضَ عليّ بن أبي طالب – كرّم الله وجههُ – في ذكر صفاتِ رسول الله (ص) والحديث عن كرم منبته واصطفاء الله تعالى له من بين الخلق جميعهم ؛ يقول عليّ :" .... حتّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ اَلْمَعَادِنِ مَنْبِتاً ، وَأَعَزِّ اَلْأَرُوْمَاتِ مَغْرِساً ، مِنَ اَلْشَّجَرَةِ اَلَّتِيْ صَدَعَ مِنْهَا أَنبيّاءَهُ ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ اَلْعِتَرِ ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ اَلْأُسَرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ اَلْشَّجَرِ ... لَهَا فُرُوْعٌ طِوَالٌ وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ" [6]. ويقول في موضع آخر :" اِخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ اَلْأَنبيّاءِ ، وَمِشْكَاةِ اَلْضِّيَاءِ ،وَذُؤَابَةِ اَلْعَلْيَاءِ ، وَسُرَّةِ اَلْبَطْحَاءِ ، وَمَصَابِيْحِ اَلْظُّلْمَةِ ، وَيَنَابِيْعِ اَلْحِكْمَةِ"[7].

وفي نسبه يقول عليّ – كرّم الله وجهه – :"... لَمْ يُسْهِمْ فِيْهِ عَاهِرٌ ، وَلَا ضَرَبَ فِيْهِ فَاجِرٌ"[8].

وهذا يُظهر لنا تفرّده (ص) بين الخلق منذ الولادة ، حتّى إنّ الله تعالى قد أوكلَ له ملكاً عظيماً من ملائكته ، يكنفه ويرعاه ويرشده إلى الطّريق القويم ، يقول عليّ (ع) :"... وَلَقَدْ قَرَنَ الله بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيْمَاً مَلَكَاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيْقَ اَلْمَكَارِمِ ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ اَلْعَالَمِ ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ" [9]. وامتدَّ تميّزه عَلَى سائر

---

[1] الشّريف الجرجانيّ ، التّعريفات ، تحقيق وتعليق د. عبد الرّحمن عميرة ، عالم الكتب ، الطّبعة الأوّلى ،بيروت – لبنان ، 1987م ، صـ 61

[2] راجع د. جعفر آل ياسين ، الفارابيّ في حدوده ورسومه ـــ العقل الأوّل– عالم الكتب ، بيروت ، الطّبعة الأوّلى ، 1985م ، صـ367

[3] الشّريف الجرجانيّ – التّعريفات –صـ61 .

[4] أبو البقاء الكفويّ ، الكلّيّات ، الجزء الأوّل ، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ– دمشق – 1981– صـ 333 .

[5] د. عبد المنعم الحنفيّ ، معجم مصطلحات الصّوفيّة ، دار المسيرة بيروت ، الطّبعة الأوّلى ، 1980م ،صـ 27 .

[6]نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد – تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم المركز الثقافي اللبناني ، بيروت – لبنان 7\50 وانظر 1\101 و7\54–55 و 9\191 و10\46 و11\51

[7]المصدر السابق 7\147– 148

[8]المصدر السابق 11\53

[9]المصدر السابق 13\154

الخلق في كلّ مراحله وسائر أحواله ، يقول عليّ (ع) :"... خَيْر اَلْبَرِيَّةِ طِفْلاً ، وَأَنْجَبهَا كَهْلاً ، وَأَطْهَر اَلْمُطَهَّرِيْنَ شِيْمَةً، وَأَجْوَد اَلْمُسْتَمْطَرِيْنَ دِيْمَةً"[1].

-تحليل خطبة للإمام عليّ (ع) يذكر فيها صفات للنّبيّ محمّد (ص) .

نصّ الخطبة :

" فَتَأَسَّ بِنبيّكَ اَلْأَطْيَبِ اَلْأَطْهَرِ صَلَّى اَلله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنَّ فِيْهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى ، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى، وَأَحَبُّ اَلْعِبَادِ إِلَى الله اَلْمُتَأَسِّيْ بِنبيّهِ ، وَاَلْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ .

قَضَمَ اَلْدُّنْيَا قَضْماً ، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً ، أَهْضَمُ أَهْلِ اَلْدُّنْيَا كَشْحاً ، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ اَلْدُّنْيَا بَطْناً ، عُرِضَتْ عَلَيْهِ اَلْدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ الله – تَعَالَى– أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْنَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اَللهُ وَرَسُوْلُهُ ، وَتَعْظِيْمُنَا مَا صَغَّرَ اَللهُ وَرَسُوْلُهُ ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلَّهِ تَعَالَى ! وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ عَلَى اَلْأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ اَلْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ[2] بِيَدِهِ ثَوْبَهُ ثَوْبَهُ ، وَيَرْكَبُ اَلْحِمَارَ اَلْعَارِيَ ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ ، وَيَكُوْنُ اَلسِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَتَكُوْنُ فِيْهِ اَلتَّصَاوِيْرُ فَيَقُوْلُ :"يَا فُلَانَةُ – لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ – غَيِّبِيْهِ عَنِّي ، فَإِنِّي إِذَا نظرتُ إليه ذكرتُ اَلْدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا . فَأَعْرَضَ عَنِ اَلْدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيْبَ زِيْنَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً ، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا يَرْجُوَ فِيْهَا مَقَاماً ، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ القَلْبِ ، وَغَيَّبَهَا عَنِ البَصَرِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ ، وَلَقَدْ كَانَ فِيْ رَسُوْلِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِئِ اَلْدُّنْيَا وَعُيُوْبِهَا ؛ إِذْ جَاعَ فِيْهَا مَعَ خَاصَّتِهِ ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيْمِ زُلْفَتِهِ ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ : أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ :"أَهَانَهُ" فَقَدْ كَذَبَ – وَالله اَلْعَظِيْمِ – بِاَلْإِفْكِ اَلْعَظِيْمِ ، وَإِنْ قَالَ :"أَكْرَمَهُ" فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ ، حَيْثُ بَسَطَ اَلْدُّنْيَا لَهُ ، وَزَوَاْهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاس مِنْهُ ، فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنبيّهِ ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ اَلْهَلَكَةَ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَماً لِلسَّاعَةِ ، وَمُبَشِّراً بِاَلْجَنَّةِ ، وَمُنْذِراً بِاَلْعُقُوْبَةِ، خَرَجَ مِنَ اَلْدُّنْيَا خَمِيْصاً ، وَوَرَدَ اَلْآخِرَةَ سَلِيْماً ، لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ ، حتّى مَضَى لَسَبِيْلِهِ ، وَأَجَابَ دَاْعِيَ رَبِّهِ ، فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِيْنَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ ، سَلَفاً نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ! وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حتّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا ، وَلَقَدْ قَالَ لِيْ قَائِلٌ : أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ ! فَقُلْتُ : اعْزُبْ عَنِّي ؛ فَعِنْدَ اَلْصَّبَاْحِ يَحْمَدُ اَلْقَوْمُ اَلْسُّرَى"[3].

يقصدُ عليّ إلى اتّباع نهج نبيّ الله محمّد في جوانب الحياة كلّها ، الأمر الّذي يتطلّب إظهار صفات النّبيّ الخُلُقيّة والخَلقيّة . وسنقف في هذه الخطبة عَلَى خصاله الخَلقيّة وسلوكيّاته في حياته اليوميّة الّتي تقودنا بالضرورة إلى استكناه صفاته النّفسيّة والأخلاقيّة ، وتبرهن عَلَى زهده (ص) في اَلْدُّنْيَا وتضحيته لنشر الدّعوة الإلهيّة وانتشال النّاس من وحول الجهل ومستنقعاته .

المستوى المعرفيّ :

تتمحور الخطبة حول فكرتين رئيستين :

---

[1] **المصدر السابق 7\96**

[2] **وردت في نسخة أخرى (ويرفعُ) ، ينظر نهج البلاغة ، قدّم له وعلّق عليه الشيخ حسين الأعلميّ ، 9\ 156**

[3] **نهج البلاغة 9\188-189**

- ❖ الدّعوة إلى الاقتداء بالنّبيّ (ص) والحضّ عَلَى ذلك .
- ❖ صفات النّبيّ (ص) الجسديّة والنفسيّة .

بدأت الخطبة بدعوة عليّ المسلم إلى اتّباع نهج محمّد والتأسّي به ، كيف لا ؟ وقد جمع من الصّفات ما لم يجتمع في غيره من النَّاس .

لقد اصطفاه الله – تعالى– بأتمّ الصّفات وأجلّها ، وجعله الأطهر عَلَى وجه البسيطة ، ليستحقَّ بذلك الاقتداء به ، والسّير عَلَى خطاه .

أشاح النّبيّ بنظره عن اَلْدُّنْيَا ، فلم يعرها بالاً ، بل حقّرها ، وحطَّ من شأنها في نفسه ، عَلَى الرغم من المكانة الّتي يحوزها ، والمنزلة الّتي خصّه الله – تعالى– بها، فكان نحيل البدن ، خميص البطن ، لا يتكبّر بين قومه ، بل يجلس بينهم عَلَى الأرض، ويدير شؤونه الشّخصيّة بنفسه ، ولا يعبأ إن رَكِبَ عَلَى دابّةٍ غير مُسرجَةٍ ، بل ويقلّ وراءه من كان ماشياً ، دون أيّ التفاتٍ إلى ما مُنحَ من عظيمِ المكانةِ.

ومن صور زهده (ص) رفضهُ النّظر إلى كلّ ما من شأنه أن يذكّره بالْدُّنْيَا وزخارفها ؛ فيطلب من إحدى أزواجه أن تبدّل السّتر ، إن كان موشّىً بأيٍّ من الألوان أو الزّينة الّتي تُدخلُ إلى نفس المرء حبّ اَلْدُّنْيَا والميل إلى لذائذها . هذا غيضٌ من فيضِ صفات محمّد (ص) الجسديّة وهيئته وأفعاله الّتي تثبتُ زهده وتواضعه ، وأنّ ما كان يصبو إليه هو نشرُ تعاليم الدّين الجديد ، وليس ما كان يزعمه المشركون من صراعٍ عَلَى السّلطة – بالمعنى المعاصر– لكسب المال ورَغَدِ العيش الماديّ .

المستوى النّحويّ وارتباطاته الدّلاليّة :

في الدّعوة إلى اتّباع هدي النّبيّ جاءت الأفعال في معظمها بصيغة الماضي ، باستثناء ثلاثة أفعال طلبيّة ؛ الأوّل بصيغة الأمر (فَتَأَسَّ) ، وقد كان فاتحة الدّعوة ، والأُخرَيان بصيغة المضارع المسبوق بلام الأمر (فَلْيَنْظُرْ، فَلْيَعْلَمْ) ، وثلاثة أفعال أخر بأسلوبٍ خبريٍّ (فَلَا يَأْمَن ، نَتَّبِعُهُ ، نَطَأ) ، بحيث كانت ترد جميعها بعد ذكر صفات رسول الله (ص) الّتي كانت براهين تدعم ما يدعو إليه صاحب الخطبة – عليّ (ع) – .

إنَّ غلبة الفعل الماضي في سياق الدّعوة والحضّ عَلَى اقتفاء أثر النّبيّ محمّد (ص) لَهو دليلٌ واضحٌ عَلَى أنّ الحكم في هذه المسألة مقضيٌّ ومشرّعٌ ، وليس موضعاً للنقاش والجدال ، وأنّ من مرادِ عليّ في ذلكَ تذكير من لم يلتحق بركب الإسلام بعد ، أو من لم يُرِد الاقتناع بأنّ تعاليم دين الإسلام قد حلّت مكان عادات الجاهليّة وأعرافها ؛ فيحاول ترسيخ مبدأ الإسلام ، وتقوية دعائمه الّتي يُعدّ فيها محمّد (ص) الدّعامة الرّئيسة ، وقد أدّى الفعل الماضي هذا الدّور الكبير ، وإن احتيج في حالاتٍ أخر إلى صيغٍ تتناسب ومقتضى الحال ، لقد استُهلّت الدّعوة بأسلوب الأمر ، وما يحمله من قوّة الدّلالة في الإلحاح عَلَى الاقتداء بالنّبيّ (ص) (فَتَأَسَّ بِنبيّكَ اَلْأَطْيَبِ اَلْأَطْهَرِ) فكانت الدّعوة مباشرةً واضحةً ، لا لبس فيها ولا تلميح ، وحتّى في الدّعوة غير المباشرة كنّا نجد الأسلوب الطلبيّ الّذي يحمل سمات القوّة والنّزوع إلى المحاججة ونقاش الطّرف الآخر بشكلٍ غير مباشرٍ ، مثّلته صيغة الغائب من الطّلب (فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ) ، (وَإِنْ قَالَ :"أَكْرَمَهُ" فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ ، حَيْثُ بَسَطَ اَلْدُّنْيَا لَهُ...) ، وفيها حضٌّ عَلَى إعمال العقل والتفكّر ، حتّى ولو أنَّ المحاور – عليّاً (ع) – مقتنعٌ بصوابيّة رأيه واعتقاده ، ثمّ بعد ذلك – أي بعد أن يتفكّر المرء ويمعن في تفكّره – أمامه الخيار (فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنبيّهِ ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ اَلْهَلَكَةَ) فإن هو تاب وعاد إلى

جادّة الصّواب فقد (وَلَجَ مَوْلِجَهُ) ، وإن لم يفعل فليس برادٍّ غضبَ الله وسخطه عليه ، فيكون كمن ألقى بنفسه إلى التهلكة ، الّتي حذّر منها الله – تعالى– في كتابه العزيز : ﴿وَلا تُلْقُوْا بِأَيْدِيْكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1].

ويلحُّ عليّ – كرّم الله وجهه – عَلَى الترغيب في اتّباع رسول الرّحمة (ص) حينما يشير إلى عظمة الله – تعالى– في بعثهِ النّبيّ محمّداً (ص) يرشد النَّاس ويهديهم إلى طريق النّجاة ، هذا الطّريق الّذي يتطلّب الاستمراريّة في السّير عليه ، والعمل الدّؤوب ، لتجنّب الحياد عنه ، " فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِيْنَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ ، سَلَفاً نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ!" وهو ما أظهرته دلالة كلّ من الفعلين (نَتَّبِعُهُ ، نَطَأُ) . إذاً لقد تدرّج أسلوب الحضّ والدّعوة ، لكن من الأعلَى إلى الأدنى ؛ فبدأ النّصّ بالدّعوة إلى اتّباع النّبيّ (ص) (فَتَأَسَّ) وما يحمله من قوّة في المعنى ، وإيحاءٍ بصلابة الموقف . لينتقل بعد ذلك إلى وصفٍ طويلٍ لصفات نبيّ الله – كانت بمنزلة براهينَ ، تدعمُ صوابيّة الدّعوة وتسوّغها – وبعد أن يكون المتلقّي قد استوعب ما أُلقي إليه ، وراح يتفاعل معه ، يأتي دور الصّيغة الأخرى (فَلْيَنْظُرْ، فَلْيَعْلَمْ)، وهي المضارع المسبوق بلام الأمر فحمل دلالة الالتماس المُلزِم الموجّه إلى عموم الأنداد والنّظراء ، يحثّهم عَلَى التفكّر والتبصّر بهدف معرفة الحقيقة، وقد جاء بصيغة الغائب لأنّه موجَّهٌ إلى عموم النَّاس ، بدليل تنكير (نَاظِرٌ) الّذي أفاد إطلاق العموم ، فأيّ ناظرٍ متبصّرٍ يُعمِلُ عقلهُ سيدرك أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – أكرمَ محمّداً (ص) ، وجنّبه زخارف اَلْدُّنْيَا ومتاعها الزّائف .

ثمَّ تنخفض حدّة الدّعوة ، وأقصدُ دعوةَ الإمامِ عليّ – كرّم الله وجهه – النَّاس إلى اتّباع أثرِ النّبيّ (ص) لأنّ المقام مقامُ ترغيبٍ ، فنرى عليّاً – كرّم الله وجهه – يحثّ الّذين تلقّوا الدّعوات أن ينعموا باتّباع نهج النّبيّ (ص) ، ويحذوا حذوه (سَلَفاً نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ) . فصيغة الماضي (تَأَسَّى ، اقْتَصَّ ، وَلَجَ) والّتي تدلُّ عَلَى حوادث مضت ، وانقضت ، وأسهمت في تعزيز النّتيجة الحتميّة للتفكّر والتّبصّر الّتي تمثّلت في الاقتداء بالنّبيّ (ص) .

ولا يعني – بحالٍ من الأحوال – قولنا (تنخفض حدّة الدّعوة) تراجعَها أو وهنَها ، وإنّما الإشارة إلى أنّ قوّة الدّعوة كانت تطّرد وقوّةَ الجحودِ والرّفضِ ، فلمّا كان الإعراض قويّاً جاءت دعوة الإمام عليّ – كرّم الله وجهه – قويّةً، ولمّا قلَّ الإعراض ، وقبل المعرضون واقتنعوا راحت الدّعوة تنحو منحىً آخر ، يتناسب مع تلك الاستجابة ، كلّ ذلك ما كان ليتحقّق أو يتوضّح لولا الصّيغ الفعليّة المتعدّدة الّتي حفلت بها عبارات النصّ وأساليبه .

ويمكن التّمثيل للتّناوب بين الدّعوة إلى الإيمان بالنّبيّ (ص) وذكر صفاته بالآتي :

1. الدّعوة إلى اتّباع أثر النّبيّ (ص) (فَتَأَسَّ بِنبيّكَ اَلْأَطْيَبِ اَلْأَطْهَرِ...)
2. ذكر صفات النّبيّ الجسديّة (ص) (أَهْضَمُ أَهْلِ اَلْدُّنْيَا كَشْحَاً...)
3. الدّعوة إلى اتّباع أثر النّبيّ– بطريقةٍ غير مباشرةٍ– (فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ ...)
4. ذكر صفاته الخُلُقيّة (الوظيفيّة) (فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّدَاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَمَاً لِلسَّاْعَةِ...)
5. الدّعوة إلى اتّباع أثر النّبيّ (ص) – بطريقةٍ غير مباشرةٍ – (فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا ...)
6. من يدعو إلى الاقتداء بالنّبيّ –وهو عليّ– أوّل المقتدين به (وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي ...)

وقد مزج الإمام عليّ – كرّم الله وجهه – بين الصّفات الخلقيّة والجسديّة للنّبيّ (ص) ، هادفاً إلى إبراز حسن خلقه وفضائله ، وهو ما استدعى التّنويع بين الجمل الاسميّة الّتي تدلُّ عَلَى الإخبار عن أحوال رسول الله بالأسلوب الخبريّ الصِّرف (أَهْضَمُ أَهْلِ اَلْدُّنْيَا كَشْحَاً ، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ اَلْدُّنْيَا بَطْنَاً) ، (فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّدَاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَمَاً لِلسَّاْعَةِ ، وَمُبَشِّرَاً بِاَلْجَنَّةِ ، وَمُنْذِرَاً بِاَلْعُقُوْبَةِ) ، وكذلك الجمل الفعليّة الّتي تضفي الحيويّة والحركة ،

[1] **البقرة – 195**

وتبيّن الأحوال الّتي كان عليّها النّبيّ (ص) (يَأْكُلُ عَلَى اَلْأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ اَلْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ...) . وكأنها دلائل وبراهين تثبت الرّكن الأوّل من الخطبة ، وتدعم الدّعوة الّتي وجّهت للمسلم في بدايتها.

وللصّيغ الفعليّة أثرٌ عظيمٌ في تنويع الأساليب والمعاني . استُخدم الفعل الماضي المبنيّ للمجهول مرّتين[1]في ذكر صفات النّبيّ (عُرِضَتْ عَلَيْهِ اَلدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا) فترك الفاعل مجهولاً غير مذكورٍ ، لإيلاء المذكور الأهميّة ، وقد ذهبَ أحدُهم إلى أنَّ الحذفَ يكونُ بحذفِ كلمةٍ أو جملةٍ أو أكثر مع قرينةٍ تعيّن المحذوف" [2]. فالأهمّ – هنا – هو الإغراء الّذي قدّمه المشركون للنّبيّ (ص) من ترغيبٍ بالمناصب واقتناء الجواهر والأنعام ، إلا أنّهم لم يلقَوا استجابةً منه (ص) . وإلى جانبِ إغراءاتِ المشركين نجدُ متعَ اَلدُّنْيَا تعرُضُ نفسها عَلَى النّبيّ (ص) من مالٍ وبنينَ ومكانةٍ حازها (ص) بين المسلمينَ ، لم تزدهُ إلا زهداً وتقرّباً إلى الله – تعالى – ، فكانَ رفضه (ص) ذلكَ كلّهُ طلباً لما هو أثمن وأبقى، ثمَّ إنّ ذلك يدلّ عَلَى الطّاعة المطلقة لله – تعالى– ، حيث شاء الله أن يجعله سيّد المرسلين ، لكنّه في الوقت عينه زهّده في اَلدُّنْيَا وزينتها ، فكان طائعاً لأمر الله ، مستجيباً لأوامرِهِ .

والشيء ذاته في الموضع الثّاني (زُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيْمِ زُلْفَتِهِ) فإذا ربطنا بين هذه العبارة وسابقتها (عُرِضَتْ عَلَيْهِ اَلدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا) فإنّ السّائل قد يسأل : كيف تعرض عليه اَلدُّنْيَا وتُزوى عنه في الوقت عينه ؟ نجد أنَّ الفاعلَ المجهولَ في الأولى هم المشركون الّذين سعَوا جاهدين لثني النّبيّ (ص) عن المضيّ قُدُماً في دعوته الحقّة ، وكذلك سائر متاع اَلدُّنْيَا ؛ في حين كان الفاعل الّذي لم يُذكر في العبارة الثّانية هو الله تعالى الّذي زهّد نبيّه بِاَلدُّنْيَا وزخارفها وصغّرها في عينه ، عَلَى الرغم من قربه من الله – تعالى– ، وهذه المنزلة العظيمة الّتي خصّه الله بها ، فكان إزواؤها عن النّبيّ (ص) بتزهيده فيها ، وليس بحجبها عنه ، يدعم ذلك قول عليّ (عُرِضَتْ عَلَيْهِ اَلدُّنْيَا) .

إذن إنّ النّبيّ محمّداً (ص) وهو نبيّ مرسَلٌ كان أمام طريقين : طريقٍ يدعوه إلى ملذّات اَلدُّنْيَا والغرق فيها ، وهذا يعني ابتعاداً عن إبلاغ الرّسالة الإلهيّة ، وقد مثّل هذا الاتّجاه المشركون الّذين يمثّلون بدورهم وساوس إبليس ورغباته ، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾[3].

وطريقٍ يزهّده في ملذّات اَلدُّنْيَا ومتاعها ، ويصغّرها في عينه ، وهو طريق الهدى والحقّ (عَلِمَ أَنَّ الله – تَعَالَى– أَبْغَضَ شَيْئَاً فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئَاً فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئَاً فَصَغَّرَهُ ....) ، (وَيَكُوْنُ اَلسِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَتَكُوْنُ فِيْهِ التَّصَاوِيْرُ فَيَقُوْلُ :"يَا فُلَانَةُ – لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ – غَيِّبِيْهِ عَنِّي ، فَإِنِّي إِذَا نظرتُ إليه ذكرتُ اَلدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا).

وفي ذلك كلّه دعوةٌ صريحةٌ إلى أنَّ اللحاق بركب الصالحين لا ينسجم مع التمسّك بِاَلدُّنْيَا والجري وراء متاعها ؛ وإنّما يتحقّق برفضها والتخلّص قدر المستطاع من أدرانها وشباكها .

لقد أدّت غزارة المعاني إلى تدفّق الأفعال بشكلٍ متتالٍ ، فما إن يُذكر فعلٌ ماضٍ حتّى تتالى الأفعال من جنسه (أَبْغَضَ ، حَقّرَ صَغَّرَ) ، وما إن يذكر فعلٌ مضارعٌ حتّى تتدفّق الأفعال المضارعة قطْراً [4] (يَأْكُلُ ، يَجْلِسُ ، يَخْصِفُ ، يَرْقَعُ ، يَرْكَبُ ، يُرْدِفُ ، يَكُوْنُ) وكأنَّ في الماضي تذكيراً بأحداثٍ جرت يلتمس التنبّه إليها والعمل بها ، وكأنَّ في المضارع خلقاً لجوّ الحاضر ، تمّحي فيه فوارق الزّمن الّتي يقتنصها بعض النّاس ، للتخلّي عن الاقتداء والعمل بما

---

[1] ورد فعلٌ مبنيٌّ للمجهول في موضعٍ آخر ، في قوله (وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئَاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ...) لكنه لم يأتِ في سياق ذكر صفات النّبيّ (ص) ، وإنّما في التّدليل والتّمثيل لفكرةٍ أخرى .

[2] أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها ، مطبوعات المجمع العلميّ العراقيّ ، الطّبعة الأولى ، 1983م ، صـ 349

[3] ص – 82

[4] تتدفّق قطراً : أي تَرِدُ متتابعةً .

جاء به النّبيّ (ص) ممّا لا يسقط بتقادم الزّمن ، رغم ورود دلالة الماضي قبل الأفعال المضارعة (وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ عَلَى اَلْأَرْضِ...) .

كما تجلّت الدّفقات في الصّيغ الصّرفيّة المتشابهة أو المتقاربة : (يَأْكُلُ ، يَجْلِسُ ، يَخْصِفُ ، يَرْقَعُ، يَرْكَبُ ، يُرْدِفُ ، يَكُوْنُ) ، وأوزانها عَلَى التّرتيب (يفعُل ، يفعِل ، يفعِل ، يفعَل ، يفعَل ، يُفعِل، يفعُل) ، فقد جاءت جميعها عَلَى وزن (يفعل) مع اختلاف حركة عين الفعل ، والّتي توحي – بحالٍ من الأحوالِ –باستمراريّةِ زهدهِ ونقلِ سلوكيّاتِ الإنسانِ القدوةِ عبرَ الأجيالِ ، فتغدو هذهِ الأفعالُ صالحةً في كلِّ زمانٍ . وإلى جانبِ الصّيغ السّابقةِ نجدُ الأفعال (أَعْرَضَ ، أَمَاْتَ ، أَحَبَّ) وهي عَلَى وزن (أَفْعَلَ) الّذي يحمل معنى التّعدية والمبالغة في الفعل ، ممّا يظهر شمائل النّبيّ (ص) الحميدة .

حَفِلَ النصّ بالصّيغ الاشتقاقيّة الّتي جاءت مناسبةً للمقام ، فصيغة اسم التّفضيل (أفعل) جاءت معرّفةً بأل (اَلْأَطْيَب ، اَلْأَطْهَر) لتفيد التّخصيص ، وتؤدّي معنى كمال الصّفة في رسول الله (ص) ، فتكون صفات الطّهر والطّيب متأصّلةً فيه ومعهودةً عنه ، لا تحتمل الشكّ. ومحمّد (ص) أيضاً (أَهْضَم، أَخْمَص ، مُبَشِّر ، مُنْذِر ، خَمِيْصٌ ، سَلِيْمٌ) وهذه عَلَى اختلاف أنواعها الصّرفيّة تجمع صفاته الجسديّة والنّفسيّة والأخلاقيّة الّتي تفرّد بها دون الخلائق .

مالت الجمل إلى القصر في نصّ عليّ – كرّم الله وجهه – ، لأسبابٍ كثيرةٍ ، منها ما ذكرته قبل قليلٍ – وهو غزارةُ الأفكار والمعاني – ، فهو يتوخّى ذكر أكبر قدرٍ ممكنٍ من الصّفات الّتي هي بمنزلة دلائل وبراهينَ ، تثبت النّهج الّذي يدعو إليه .

لقد اتّخذت اللّغة في الخطبة الّتي عرضتُها صوراً كثيرةً ؛ إذ أظهرت ألواناً مختلفةً من الخطاباتِ ، وأنماطاً متباينةً ، واتّجاهاتٍ شتّى . وهذا يعودُ إلى تفاعلِ الطبقةِ العلاميّة مع الطبقتينِ الاتّصالية والبرجماتية ، وهذا ما أكسب اللّغة قيمتها .

المستوى الفنّيّ (البيانيّ) :

ذهبَ بعضُ النّقادِ إلى أنَّ المجازَ "مصطلحٌ يترادفُ – بشكلٍ عامٍّ– معَ طرقِ التّعبير ومسالكهِ المختلفةِ ، بكلِّ ما يمكنُ أن يندرجَ تحتَ هذهِ الطّرقِ أو المسالِك من تجوّزٍ لغويٍّ سواءٌ أكانَ ذلكَ عَلَى المستوى الدّلاليّ الخالصِ ، أم عَلَى المستوى التّركيبيّ الخاصّ بالنّظامِ النّحويّ والصّرفيّ للكلماتِ" [1]. فيما رأى الدّكتور جابر عصفور في (الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ) "أنَّ المجازَ – في أفضلِ أحوالهِ – طريقةٌ خاصّةٌ في إثباتِ المعنى وإحداثِ خصوصيّةٍ فيهِ ، ولكنّ المعنى – أو المثبَت– قائمٌ وثابتٌ ، لا يتغيّرُ جوهرهُ المستقلّ ، قبلَ ، أو بعدَ ، أن يوضَعَ في وعاءِ المجازِ أو يكتسيَ بهِ ، وليسَ ثمّةَ تغييرٌ فيهِ إلا الرّونقَ الجديدَ الّذي أضفيَ عَلَى ذلكَ المعنى الثّابت المستقلّ"[2]

قد نتّفقُ معَ صاحبَي نظريّةِ الأدبِ اللذينِ رأيَا أنَّ موادَّ العملِ الأدبيّ الرّفيع "كلمات ، وهي عَلَى صعيدٍ آخر تجربةُ السلوكِ الإنسانيّ ، وعَلَى صعيدٍ ثالثٍ الأفكارُ الإنسانيّة والمواقفُ" [3]. وعليهِ فإنّنا نجدُ أنَّ الصّور البيانيّةَ في الخطبةِ **قد توزّعت عَلَى نمطين :**

---

[1] محمّد زغلول سلام ، أثر القرآن في النّقدّ العربيّ ، دار المعارف ، القاهرة ، 1961م ، صـ41 وما بعدها .

[2] الطّبعة الثّانية ، دار التّنوير للطّباعة والنّشر ، بيروت – لبنان ، 1983م صـ 139

[3] رينيه ويليك وأوستن وارين ، نظريّة الأدب ، ترجمة محي الدّين صبحي – المجلس الأعلَى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة – دمشق 1972م ، صـ 318

أ. تقريريّةٍ مباشرةٍ :

لمّا كانت الخطبة موجّهةً إلى عموم المسلمين ، ولمّا كان عليّ – كرّم الله وجهه – يأخذ بالحسبان شيوع الأمّيّة بينهم، ولمّا كان أيضاً المقامُ وعظاً وإرشاداً وتوجيهاً ، فإنَّ السّمة الّتي طبعت الصّور في الخطبة كانت التّقريريّة والمباشرة ، يقول عليّ (ع) : إنّ محمّداً (ص) " أَهْضَمُ أَهْلِ اَلْدُّنْيَا كَشْحَاً" ، وقد استعان باسم التّفضيل (أهضم) مضافاً إلى (أَهْلِ اَلْدُّنْيَا) ، الّتي تظهر سبقه – ليس فقط – للمسلمين في زمانه، وإنّما للبشرِ قاطبةً ؛ نظراً لزهده في اَلْدُّنْيَا ورفضه لها .

ثمَّ التّمييز (كشحاً) جاء نكرةً ، فوضّح الفكرة وعمّمها ، وخصّ بها كشح رسول الله (ص) دون غيره ، مظهراً تفرّده في الزّهد والإعراض عن ملذّات اَلْدُّنْيَا ، وهو بذلك يرسم في ذهن السّامع صورة النّبيّ (ص) ، وبدورهِ فإنّ السّامع قد يختزنها فيترجمها في قلبه اعتقاداً وفي سلوكه اقتداءً .

وكذلك الحال في قوله (وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ اَلْدُّنْيَا بَطْنَاً... يَأْكُلُ عَلَى اَلْأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ اَلْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ [1] بِيَدِهِ ثَوْبَهُ ، وَيَرْكَبُ اَلْحمَارَ اَلْعَارِيَ ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ...) ، جميعها صورٌ حيّةٌ أسهَمَ الفعل المضارع – شأنه شأن البنى النصّيّة الأخرى – في إضفاء الحيويّة والحركة ، ومدّها بأسباب الاستمراريّة الّتي تجعل منها صالحةً في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، وقد شكّلت في مجملها لوحةً متكاملةً تظهر سلوكيّات نبيّ الله (ص) وأفعاله في حياته ، وتبيّن موقفه من اَلْدُّنْيَا .

ب . صور إيحائيّة رامزة :

قلّت الصّور الإيحائيّة في خطبة عليّ – كرّم الله وجهه – لحساب الصّور المباشرة ، وذلك للأسباب الّتي ذكرناها آنفاً. وتتمحور تلك الصّور حول فكرتين :

1– موقف النّبيّ (ص) من اَلْدُّنْيَا وزهده فيها . 2– غاية بعثه .

أمّا الأولى فقد حازت القدْر الأكبر من الصّور الإيحائيّة الرمزيّة ، ومنها قول عليّ (قَضَمَ اَلْدُّنْيَا قَضْمَاً) ، فالنّاظر في هذه الصّور قد يزعم أنّ فيها إقبالاً عَلَى اَلْدُّنْيَا ، وتمتّعاً بطيباتها ، لكنّ السّياق العامّ للخطبة والشّخصيّة الّتي تُقصد في هذه الصّورة تدلّ – بما لا يدع مجالاً للشكِّ – أنّ قضم اَلْدُّنْيَا هنا هو تركٌ لها ، ازدراءً لفتنتها وزخارفها، كما أنّه ليس من الأمر اليسير رفض متاع اَلْدُّنْيَا ، وإنّما يحتاج ذلك إلى إرادةٍ صلبةٍ لمحاربة هوى النّفس ورغائبها .

وقد استخدم عليّ – كرّم الله وجهه – صوت القاف (قضم) – في الصّورة – بدلاً من (خضمَ) ، على سبيل المثال ، وهو ما يذكّرنا بحديث اللّغويّين القدماء عن أنّ استخدام القضم للشّيء القاسي ، والخضم للشّيء الطّريّ[2]، وكأنَّ محاربة اَلْدُّنْيَا الّتي تؤدّي بالإنسان إلى الهلاك والضّياع أمرٌ يتطلّب جهداً وعناءً كبيرين ؛ ممّا يحتاج إلى استعمال الفعل مؤكّداً ، (قَضَمَ اَلْدُّنْيَا قَضْمَاً) ، ومثلها صورٌ شتّى تدور في فَلَكها ، من مثل (عُرِضَتْ عَلَيْهِ اَلْدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا) (خَرَجَ مِنَ اَلْدُّنْيَا خَمِيْصَاً) (وَرَدَ اَلْآخِرَةَ سَلِيْمَاً) .

---

[1] **وردت في نسخة أخرى (ويرفعُ) ، ينظر نهج البلاغة ، قدّم له وعلّق عليه الشيخ حسين الأعلميّ ، 9\ 156**

[2] **يرى بعضُ اللّغويّينَ أنَّ القافَ تحسّنُ بناءَ الكلمةِ ، إذا دخلت عليها ؛ لأنّها معَ العين "أطلقُ الحروفِ وأضخمُها جرساً". الخليل بن أحمد الفراهيديّ ، معجم العين ، الجزء الأوّل ، تح : د. مهدي المخزوميّ ، د. إبراهيم السّامرائيّ ، منشورات دار الهجرة ،إيران – قم : 1405هـ . ينظر أيضاً أبو الفتح عثمان بن جنّيّ ، الخصائص ،تحقيق محمّد عليّ النّجار ، دار الهدى للطّباعة والنّشر ،الجزء الثّاني ، صـ 157–158**

وأمّا الفكرة الثّانية – وهي غاية بعثه – فتجلّت في صورتين إيحائيّتين (إِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَماً لِلسَّاْعَةِ) (قَائِدَاً نَطَأُ عَقِبَهُ) .

لقد أرسل الله – تعالى – محمّداً (ص) "في زمنٍ كانَ النَّاس فيهِ أحوجَ ما يكونونَ إلى دينٍ جديدٍ، ينيرُ لهم ظلماتِ الحياةِ ، ويبشّرهم بالجزاء الكريم ، وينذرهم سوءَ العاقبةِ" [1]، فكان منارةً يهتدي إليها التّائهون في دياجي الجهل والشّرك. كما تظهر الصّورة مدى طاعة النّبيّ (ص) وخضوعه لأمر الله وامتثاله لإرادته ، وذلك من خلال الفعل المسبوق بتوكيد (إِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ...) . وإذا كان النّبيّ مؤتمراً بأمر الله ، خاضعاً له ، فهو أولى النَّاس بأن يُتّبع وينتهجَ نهجُه ، (فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِيْنَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ، سَلَفَاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِدَاً نَطَأُ عَقِبَهُ!) .

إنَّ محمّداً (ص) بنظر عليّ – كرّم الله وجهه – نعمةٌ من نعم الله عَلَى البشر ، ولا ريب أنّه أراد بذلك نعمة النجاة من عذاب النّار والفوز بدار البقاء بدل نعيم اَلْدُّنْيَا الزّائل .

ورسول الله (ص) قائدٌ ، يقود سفينة الإسلام إلى برّ الأمان ، ويتجلّى الإيحاء هنا في (نَطَأُ عَقِبَهُ)؛ فالدّرب يسلكه النّبيّ ، وما عَلَى النَّاس إلّا أنْ يسلكوه خلفه ، ولا يحيدوا عنه ، فيما لو أرادوا الوصول إلى الحياة الدّائمة ، فاستعار الوطأة والسّير للنّهج (الدّستور) الّذي رسمه النّبيّ وسار وأمر بالسّير عليه.

الخطاب العقليّ في النصّ :

إنّ الأساس الّذي قامت عليه الخطبة حوار العقل ، ومحاولة إقناعه بصحّة ما يدعوه إليه ، ولا ريب أنَّ خطاب العقل يحتاج إلى الحُجج والبراهين الّتي يستند إليها العقل ، ويقبل بها ، ولا ينقاد إلا من خلالها ، وهي – أي البراهين – بدورها تستند إلى الأساليب اللّغويّة .

وقد توسّلت الخطبة إلى تقديم البراهين من خلال مجموعة من الأساليب اللغويّة في مقدّمتها أسلوب التّوكيد وهو أكثر ما يُحتاج إليه في التّدليل والاحتجاج ، فمن المؤكّدات المختلفة الّتي وردت في الخطبة (...فَإِنَّ فِيْهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى) (وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ عَلَى اَلْأَرْضِ...) ، والتّكرار توكيدٌ كذلك (أَبْغَضَ شَيْئَاً فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئَاً فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئَاً فَصَغَّرَهُ) ، ومن المؤكّدات أيضاً المفعول المطلق الّذي ورد غير مرّةٍ في الخطبة (قَضَمَ اَلْدُّنْيَا قَضْمَاً، يَجْلِسُ جِلْسَةَ اَلْعَبْدِ) .

ومن أساليب الإقناع العقليّ في الخطبة الاستفهام والشّرط اللّذان بنيا عَلَى أساس النّقاش مع المتلقّي ؛ وافتراض الجواب وتقديره ، ثمّ البناء عليه ، (فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ : أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ :"أَهَانَهُ" فَقَدْ كَذَبَ – وَالله اَلْعَظِيْمِ – بِاَلْإِفْكِ اَلْعَظِيْمِ ، وَإِنْ قَالَ :"أَكْرَمَهُ" فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ ، حَيْثُ بَسَطَ اَلْدُّنْيَا لَهُ ، وَزَوَاْهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاس مِنْهُ) .

يعلم عليّ اختلاف عقول النَّاس وأهوائهم ، وأنَّ رؤياهم ليست واحدةً ، لذلك يدعو بدايةً إلى النّظر بالبصيرة لا بالبصر ؛ أي إعمال العقل ، ثمَّ يلقي السّؤال عَلَى المتلقّي : "أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ!" ، وقد حذف همزة الاستفهام الّتي يستدلّ عليّها المتلقّي من (أم) المعادلة العاطفة ، ولا ريب أنّ الإجابة ستتخذ منحيَين:

الأوّل : فَإِنْ قَالَ :"أَهَانَهُ" [سبب]

فَقَدْ كَذَبَ – وَالله اَلْعَظِيْمِ – بِاَلْإِفْكِ اَلْعَظِيْمِ [نتيجة]

[1] **د. محمود كحيل ، النّزوع المثالي في الشّعر الإسلاميّ والأموي ، دار القلم العربي – حلب ، الطّبعة الثّانية ، 2005م ، صـ 62**

وقد بدأ بالافتراض السلبيّ الّذي وجّهه إلى المشكّكين ، فيتهكّم بجوابهم ، ويحاول أن يدحض زعمهم ، مؤكّداً كذبهم من خلال القسم (وَاللهِ اَلْعَظِيْمِ) .

ثمّ وضعَ الاحتمال الثّاني مستخدماً كذلك الأسلوب الشرطيّ القائم عَلَى السبب والنتيجة :

وَإِنْ قَالَ :"أَكْرَمَهُ" [سبب]

فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ ، حَيْثُ بَسَطَ اَلدُّنْيَا لَهُ [نتيجة]

لقد قامَ أسلوب الشّرط – ههنا – عَلَى مقدّمة بديهيّة ، وهي مبرّرة منطقيّاً ، ونتيجةٍ مبنيّةٍ عَلَى البديهةِ ، كما أنّ الحركة البرهانيّة تتوارى فيها الملفوظاتُ اللغويّةُ مع حركةِ الاستدلالِ ؛ إذ ليس المرادُ إظهارَ العلاقة بين طرفي الشّرط فقط ، بل تقريرَ حقيقةٍ يجهلها السّامع ، أو يتغافلُ عنها أيضاً ، وهي أنّ الله – عزَّ وجلَّ – لم يكتفِ بإكرامِ نبيّه محمّد (ص) ، بل أهان غيره حين بسط لهم اَلدُّنْيَا ، وهذا إمعانٌ في إظهار عظمةِ الرّسول (ص) ومكانتهِ في اَلدُّنْيَا والآخرة.

تبقى الإشارةُ إلى أنّ الافتراض الأوّل احتاج إلى القَسَم (لكلّ مقامٍ مقالٌ) في حينَ لم يحتج الافتراض الثّاني إليه .

ومن الأساليب في الخطبة : الأسلوب الطلبيّ المتجسّد في الأمر ؛ إذ استخدم ثلاث مرّات في سياقاتٍ مختلفةٍ .

لقد بدأ النّصّ بالأمر " فَتَأَسَّ بِنبيّكَ اَلْأَطْيَبِ اَلْأَطْهَرِ صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ" ، فالدّعوة إلى اقتفاء أثر النّبيّ (ص) هو واجبٌ شرعيٌّ ، مكلّفٌ بالدّعوة إليه الخلفاءُ (ر) وليس الأمر كفائيّاً ، ثمّ نجد (فَلْيَنْظُرْ) جاء لتنبيه المخاطَب إلى ما سيُلقى إليه من استفهامٍ ، وكذلك (فَلْيَعْلَمْ) الّذي جاء في سياق الرّدّ عَلَى الاستفهام ، وهو ما أوردناه قبل قليل .

ومن الأساليب الّتي حفلت بها الخطبة أيضاً النّفي (لَمْ يَضَعْ حَجَرَاً عَلَى حَجَرٍ) ، والتّعجّب الّذي قصد إلى تعظيم النّبيّ وإبراز قيمة اتّباعه ، وقد جاء – التّعجّب – بعد التّعريف بالنّبيّ وذكر صفاته الخُلُقيّة والخَلقيّة (فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِيْنَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ ، سَلَفَاً نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِدَاً نَطَأُ عَقِبَهُ!) .

والقسم الّذي جاء في سياقٍ مختلفٍ ، فإذا كان عليّ يدعو النَّاس إلى انتهاج نهج النّبيّ والإيمان به ، فلا شكّ أنّ إقناعاً غير مباشرٍ قد ورد في الخطبة بعد القسم ، تمثّل في ابتداء عليّ بنفسه في الاقتداء برسول الله (ص) ؛ فالدّاعي إلى خُلُقٍ يتمثّل به قبل بل أن يدعوَ إليه ، كما النّاهي عن خُلُقٍ أوّل ما ينتهي عنه . (وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حتّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا ، وَلَقَدْ قَالَ لِيْ قَائِلٌ : أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ ! فَقُلْتُ : اعْزُبْ عَنِّي ؛ فَعِنْدَ اَلصَّبَاْحِ يَحْمَدُ اَلْقَوْمُ اَلْسُّرَى) .

ومن مكوّنات الخطاب العقليّ الّتي وردت في الخطبة ذكر الحوادث والأخبار ، فتكون داعمةً للمعاني والأفكار ، ومنها قوله :"... وَيَكُوْنُ اَلسِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَتَكُوْنُ فِيْهِ التَّصَاْوِيْرُ فَيَقُوْلُ :"يَا فُلَانَةُ – لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ – غَيِّبِيْهِ عَنِّي ، فَإِنِّي إِذَا نظرتُ إليه ذكرتُ اَلدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا) ؛ إذ أكّدت ما ذكره عليّ من زهد النّبيّ محمّد (ص) في اَلدُّنْيَا وإعراضه عن متاعها ، حتّى في أصغر أشيائها وهو السّتر الموشّى .

ربّما يكونُ إعراضُ النّبيّ (ص) عن السّتر المصوَّر عَلَى باب بيته تعليماً للنّاسِ كي لا تكونَ الزّينةُ مفتاحاً للدّخولِ في ملذّات اَلدُّنْيَا والإعراضِ عن الآخرة ؛ فالنّبيّ (ص) أبعدُ ما يكونُ من ذلكَ ، ثمّ إنَّ التّساؤلَ الّذي قد يُطرَحُ حول موقفِ النّبيّ (ص) من التّصويرِ، وهل التّصوير محرّمٌ شرعاً ؟ يكون جوابُهُ من القرآنِ الكريم ؛ إذ يقول الله تعالى

: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا﴾ [1] ، ويقول سبحانه : ﴿ أَطِيْعُوا اَللهَ وَرَسُوْلَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُوْنَ﴾[2]

وكذلك ذكر حادثة زهد عليّ نفسه – وقد ذكرناها قبل قليل – أمّا الحوار فيضفي الحيويّة والحركة ويبعد الخطبة عن النمطيّة والرّتابة (الرّوتين) إلى جانب دور الحوار في الخطاب العقليّ ، كما في حديث محمّد (ص) إلى إحدى أزواجه ، يطلب إليها تبديل السّتر عن باب البيت ، شارحاً لها أسباب طلبه . وأيضاً الحوار الّذي يمكن أن نسمّيه نقاشاً حول موقفِ المسلم من النّبيّ (ص) (أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّدَاً صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ :"أَهَانَهُ"...) ، فضلاً عن الحوار بين عليّ ورجلٍ ما ، حول المدرعةِ الّتي داوَمَ عليّ – كرّم الله وجهه – عَلَى رتقها (وَلَقَدْ قَالَ لِيْ قَائِلٌ : أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ ! فَقُلْتُ : اعْزُبْ[3] عَنِّي ؛ فَعِنْدَ اَلصَّبَاْحِ يَحْمَدُ اَلْقَوْمُ اَلسُّرَى) إذ تُظهر مدى زهد عليّ ، مقتدياً في ذلك بالنّبيّ .

وعليهِ فقد اتّصفتِ الخطبةُ عَلَى المستوى العقليّ بالآتي :

1– مبدأ المشاركة . 2– مبدأ الوضوح والإفهام . 3– مبدأ الملاءمة . 4– مبدأ الإخبار . 5– مبدأ التّشويق . 6– مبدأ الشّمول . 7– مبدأ النّفعيّة . 8– مبدأ الصّدق .

المستوى الإيقاعيّ :

إنَّ قراءة المقطع المقتطف من الخطبة تظهر كمّاً كبيراً من ألوان البديع الّتي تحمل إيقاعاتٍ موسيقيّةً مختلفةً؛ تذكّر بِسِمَةِ الخطابة الإسلاميّة وخصائصها المميّزة آنذاك ، لكنّها ليست بحالٍ من الأحوال شكلاً فنّيّاً بعيداً عن المعنى المرجوّ ؛ فالغاية – يمكن الجزم – هي الوصولُ إلى المعنى المراد ، وهو ذكر صفات النّبيّ الواجب الاقتداء به ، فيأتي الشّكل الفنّيّ ليُبرِزَ عمق المعنى ، وينسجم معه انسجاماً عضويّاً، يؤكّد استحالة الفصل بين الشّكل ومضمونه ، وإن حصل هذا الفصل فإنّما لغايةٍ درسيّةٍ ، يقتضيها التّحليل وضرورة تشريح النّصّ إلى ما يتكوّن منه قبل إعادة تركيبه

يرى الدّكتور تامر سلّوم أنَّ "البحث في الإيقاع ليس في حقيقته إلا بحثاً عن أسرار المعنى ، وطرائق تقديمه وتشكيله ، فإذا كان المعنى الشّعريّ معنىً مغلقاً ، بمعنى أنّه نصٌّ مبهمٌ، لا نقدر أن نؤطّره ، فإنَّ الإيقاع رحيلٌ في هذا المبهم المغلق المجهول . إنّه مجموعة متناقضاتٍ ، وحداتٌ زمنيّةٌ مفاجئةٌ ، ألحانٌ غير متوقّعةٍ ، تقودنا إلى المجهول"[4]، وأنَّ المسألة في الإيقاع "هي الوصول إلى المجهول عبر تعطيل الحواسّ كلّها"[5].

يبدو السّجع غالباً عَلَى سائر أجناس البديع الأخرى ، وهو يقابل القافية في الشّعر ، فمهما قلّ استخدام عناصر الإيقاع ، لأسبابٍ مختلفةٍ ، لا يمكن للشّاعر أن يتخلّى عن القافية في نظمه الشّعر ، وربّما لسببٍ قريبٍ من ذلك كان السّجع ممّا يصعب أو يندر التخلّي عنه في فنّ الخطابةِ ، عموماً ، والإسلاميّةِ منها عَلَى وجه الخصوص .

---

[1] الحشر – 7

[2] الأنفال – 20

[3] اعزب عني : ابتعدْ وانصرفْ

[4] د. تامر سلّوم ، أسرار الإيقاع في الشّعر العربيّ ، دار المرساة ، سوريا – اللاذقيّة ، الطّبعة الأوّلى ، 1994م ، صـ251 .

[5] د. محمّد زكي العشماويّ ، قضايا النّقد الأدبيّ بين القديم والحديث ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، الإسكندريّة ، الطّبعة الثّالثة ، 1978م ، 251 .

كما أن ظاهرة السّجع "أكثر سطوعاً وبروزاً عبر تجلّياتها الّتي تجذب المتلقّي من دون بذل جهدٍ تأمليٍّ لتشخيص ملامحها واستجلاء تمظهراتها الصّوتيّة"[1]

ويأتي في مقدّمته – ههنا – السّجع المتوازي الّذي يقوم عَلَى اتّفاق الفاصلتين في الوزن والقافية معاً [2] ، يقول عليّ (ع) :" فَتَأَسَّ بِنبيّكَ .... فَإِنَّ فِيْهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى ، وَعَزَاْءً لِمَنْ تَعَزَّى "، فكلٌّ من (تَأَسَّى – تَعَزَّى) اشتركا في التّقفيةِ والوزن (تفعّل) وهذا ينمّ عَلَى بلاغةٍ ينضحُ بها المعطى المضمونيّ لخطبةِ الإمام عليّ – كرّم الله وجهه – ؛ فمن أراد أن يتّخذ من نبيّ الله أسوةً يجدها ، ومن أراد أن يتعزّى به (ص) يجد العزاء . فالنّبيّ (ص) قدوةٌ في كلّ مناحي الحياة الإنسانيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة عَلَى حدٍّ سواء ؛ وكذلك قول عليّ (ع) :" وَعَلِمَ أَنَّ الله – تَعَالَى– ... حَقَّرَ شَيْئَاً فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئَاً فَصَغَّرَهُ " ؛ فالسّجع المتوازي (حَقّرَهُ – صَغَّرَهُ) يمتزج مع التّكرار (حَقَّرَ – صَغَّرَ) وهو ما يحمل تأكيد معنى الاقتداء والخضوع والامتثال لإرادة الله – تعالى– والمبالغة فيها .

ومن فنون البديع في الخطبة الموازنةُ في قول عليّ عن النّبيّ محمّد (ص) : " خَرَجَ مِنَ اَلْدُّنْيَا خَمِيْصَاً ، وَوَرَدَ اَلْآخِرَةَ سَلِيْمَاً" حيث نجد الاتّفاق في الوزن دون التّقفية بين (خَمِيْصَاً – سَلِيْمَاً) وكلّ منهما عَلَى وزن (فعيل) ، أي إنّهما من الصّفات المشبّهة اللّائي تُظهر الثّبات والدّيمومة في الزّهد بِاَلْدُّنْيَا ، والطّهر والسّلامة من الذّنوب في الآخرة ، وكلٌّ منهما تنتهي بالمقطع الطويل المغلق (صن – من) الّذي يشعرنا بألم الانقطاع عن ملذّات اَلْدُّنْيَا . ثمّ إنّها دعوةٌ للمرء للتفكّر ؛ إذ إنّ النّبيّ (ص) – وهو مصطفىً من الله تعالى – رغب عن اَلْدُّنْيَا في سبيل الآخرة ، واستجاب لأوامر الله ، وانتهى عن نواهيه ، فإذا كان – وهو قريبٌ من الله تعالى – يقتدي بالله – سبحانه – "عَلِمَ أَنَّ الله – تَعَالَى– أَبْغَضَ شَيْئَاً فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئَاً فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئَاً فَصَغَّرَهُ" ، فهذا ممّا يطرب الأذن ، وترتاح له النّفس ، فيحتّم عَلَى المرء أن يقتديَ بالنّبيّ محمّد (ص) ويتّعظ ويتعلّم منه .

الإيقاع الدّاخليّ للألفاظ غايةٌ في الأهميّة ، ولا يمكن تجاوزه ، فالكلمات يعرض لها الائتلاف والتّنافر اللّذان يؤثّران في جمالها الإيقاعيّ ، ويوحيان بالمعاني المتوخّاة ، وهو الغاية الأساسيّة في كلّ ذلك ؛ إذ يرى جان كوهين أنَّ "العمليّة الشّعريّة تجري في مستوييّ اللّغة معاً : الصّوتيّ والدّلاليّ" [3]. صحيحٌ أنّ الذّوق العربيّ يميل إلى تباعد حروف الكلمات إلا أنّ إجماعاً حول ذلك لم يحدث بينهم ؛ فقد "اختلف القدماء في تحديد معنى تنافر الحروف ، فرآه بعضهم : في تباعد حروف الكلمة من حيث المخرجُ ، ورآه بعضهم [4] الآخر : في تقاربِ الحروفِ" [5] ، فذهب إلى إبراز الجمال في الحروف ذات المخرج الواحد كما فعل الدّكتور محمّد النويهيّ في (الشّعر الجاهليّ)[6].

---

[1] نوفل هلال أبو رغيف ، المستويات الجماليّة في نهج البلاغة – دراسة في شعريّة النّثر ، الطّبعة الثّانية ، بغداد ، 2011 ، صـ 99

[2] جلال الدّين القزوينيّ الخطيب ، التّلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح د. عبد الرحمن البرقوقي ، الطّبعة الأوّلى ،المكتبة التّجاريّة الكبرى ، مصر : 1904م صـ 398–399

[3] جان كوهين ، بنية اللّغة الشّعريّة ، ترجمة محمّد الوليّ ، ومحمّد العمريّ ، دار توبقال للنّشر ، الدّار البيضاء ، الطّبعة الأوّلى ، 1986م ، ضمن سلسلة المعرفة الأدبيّة ، صـ 51

[4] وردت كلمة (بعضهم) في المرجع معرّفةً بـ أل (البعض) .

[5] د. محمّد حسين الطريحيّ ، البنية الموسيقيّة في شعر المتنبيّ ، الطّبعة الأوّلى ، 2008م ، صـ 17

[6] دحضَ الدّكتور محمّد النويهيّ في كتابه الشّعر الجاهليّ رأيَ مَن أنكر تكرار الأعشى لحرف الشّين في بيته المشهور :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شلشلٌ شَوِلُ

وراح يورد الحجّة بعد الحجّة لإثبات بطلان ما زعمه المنكرون . ينظر د. محمّد النويهيّ، الشّعر الجاهليّ ، الجزء الأوّل ، الدار القوميّة للطّباعة والنّشر ، القاهرة ، صـ 67–68 .

وللتّكرار نصيبٌ وافٍ في خطبة عليّ – كرّم الله وجهه – ؛ إذ نجده يكرّر (أَبْغَضَ) أربع مرّاتٍ ، فالفعل يستدعي نظيره (أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ) (وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ) . وما في ذلك من ائتلاف الصّوت الّذي يشدّ السّامع إلى جرسه ، ويؤدّي دوره في إبراز المعنى ، فلو أصغينا إلى جرس (الغين) الّذي يخرج من أقصى الحلق لأحسسنا بلفظ النَّفَس إزاء كلّ ما نهى الله – عزّ وجلّ– عنه وكرهه ، ولشعرنا في جرس (الضّاد) الجهريّ المطبق الثّقيل النّطق بالنّفور من الشّيء ، والرّفض له، والضّيق منه . فضلاً عن تأكيد المعنى وإظهار خضوع محمّد (ص) ، وامتثاله لما أمر الله – تعالى– به ، فما حلّله الله حلّله نبيّه ، وما حرّمه الله حرّمه نبيّه .

كما يلفت النّظر مجيءُ كلمة (شَيْئاً) بالتّنكير مترافقةً مع الفعل (أَبْغَضَ) ، وهو ما يطلق المعنى إلى أنَّ الأشياءَ المنهيّ عنها كثيرةٌ ، وأنَّ الإسلام الحنيف قد حدّدها عَلَى نحوٍ يقرُّ بهِ كلُّ مَن يخشى اللهَ حقَّ خشيتِهِ .

ومن التّكرارِ أيضاً الكلماتُ الّتي تنتمي إلى جذرٍ لغويٍّ واحدٍ ؛ من قبيلِ (تَأَسَّ ، أُسْوَة ، تَأَسَّى ، اَلْمُتَأَسِّي) الّتي يجمعُها الجذرُ (أَسِيَ) ؛ إذ يغلبُ عليها طابعُ الهمسِ ، وما لذلكَ من أثرٍ في الإيقاعِ الدّاخليّ للكلماتِ والعباراتِ ؛ إذ يرى سيبويه أنَّ الحروفَ الهامسةَ سُمّيت كذلكَ "لأنَّ الهمسَ الصّوتُ الخفيُّ ، فلضعفِ الاعتماد فيها وجري النّفس مع ترديد الحرف تضعُفُ"[1]. وَلَربَّما يحسُّ المتلقّي بسهولةِ نفاذِ الألفاظِ إلى ذهنهِ ، معَ عظيمِ معناها ويسرِ مبناها ، فيسهلُ عليه قبولها والإقبال عليها ، وبالتالي التفكّرُ بها ، وربّما تمثّلها اعتقاداً وسلوكاً .

وليس إيراد هذا النّوع أو ذاك ناجماً عن تكلّفٍ في الصّنعةِ ، وإنّما يجري مجرى الطّبع والسّجيّة الّتي عُرِف بها العرب ، ولا سيّما ما أُثِر عن عليّ – كرّم اللهُ وجهه – من فرادةٍ في الفصاحة والبلاغة ؛ ويرى يحيى بن حمزة العلويّ صاحب كتاب (الطّراز) "أنَّ أحداً من البلغاء وأهل الفصاحةِ لا يبلغُ – وإن عَظُمَ خطرهُ – شأوَ كلامهِ .... ويقصر عن الإتيان بمثالهِ . وما ذاكَ إلّا لأنّهُ سبقَ وقصّروا ، وتقدّمَ وتأخّروا"[2] كما لا يخفى أسلوب الخطابة الإسلاميّة آنذاك ولا سيّما الدّعاء الّذي يغلب عليّه التسجيع وحسن التّقسيم في العبارات ، والّذي استمرّ في العصور اللّاحقة وبولغ فيه حتّى صار تنميقُ الدّعاء بألوان البديع المختلفةِ غايةً في ذاته .

الخاتمة :

لقد مثّلت صفات النّبيّ (ص) صورة الإنسان المثال الّذي اضطلع بالمهام الموكلة إليه ، ودعا إليها ، وعمل عَلَى تحقيقها طيلة حياته ؛ كالهدايةِ والعدل ، فهو (ص) نورٌ يهتدي إليه التّائهون ، ومَعينٌ لا ينضبُ من العلم والتّقى ، ينهل منه أهله ، وهو الأمينُ الّذي حمل الرّسالة ، فأدّاها خير تأديةٍ، ولم يفرّط بأيٍّ من جزئيّاتها أو تعاليمها ، لكي لايكون للنّاسِ حجّةً في الجهلِ أو الإنكار .

وأمّا ما لاقاه من المشركين من محاربةٍ وأذىً وتكذيبٍ فلم يكن ليثنيه عن تبليغ رسالةِ ربّه عَلَى أكملِ وجهٍ .

وأدّت أطياف البيان والبديع دورها في تجليةِ تلك الصّفات من خلالِ تآزرِ النّظامِ الصّوتيّ مع النّظامِ المعجميّ والنّحويّ والبلاغيّ ، فكوّنت جميعُها النّسيج العامّ للنّصّ ، مظهرةً قدرة الإمام عليّ –كرّم اللهُ وجهه – في تطويع المخزون اللغويّ للتّعبير عن المعاني والأفكار .

---

[1] **إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغويّة ، دار الطّباعة الحديثة ، الطّبعة الخامسة ، 1979م ، مكتبة الأنجلو المصريّة – دار وهدان للطّباعة والنّشر ، صـ 119**

[2] **يحيى بن حمزة العلويّ اليمنيّ ، الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، مطبعة المقتطف ، مصر ، الجزء الأوّل ، 1914م، صـ 221**

برز دور الوزن الصّرفيّ في الكلمة في نقل المعنى ، وارتباطها فيما عداها من مفردات تحملُ معاني إضافيّة جديدة .

وقد فرضت طبيعة المادّة المدروسة مساحةً أكبر للجانب الصّوتيّ ، فكان للبديع عَلَى اختلاف ألوانه أثره في جرس نغمةٍ تتلاءم والمعنى ، كما برز دور الموسيقا الدّاخليّة للألفاظ والأحرف من حيث الائتلاف والاختلاف ، وما ذهب إليه ابنُ جنّيّ في الخصائص من مجانسة الصّوت للمعنى وتعبيره عنه.

المصادر :

1. القرآن الكريم .
2. آل ياسين ،د. جعفر ، الفارابيّ في حدوده ورسومه ، الطّبعة الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، 1985م .
3. ابن أبي طالب ، عليّ ، نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد ، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء : الأوّل ، السابع ، التاسع ، العاشر ، الحادي عشر ، الثّالث عشر ، المركز الثقافيّ اللبنانيّ، بيروت – لبنان .
4. ابن جنّيّ ، أبو الفتح عثمان ، الخصائص ، ، تح د. محمّد عليّ النّجّار ، الجزء الثّاني ، دار الهدى للطّباعة والنّشر ، بيروت – لبنان ، بلا تاريخ .
5. الجرجانيّ ،الشّريف ، التّعريفات ، تحقيق وتعليّق ، د. عبد الرحمن عميرة ، الطّبعة الأولى ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان : 1987 م .
6. الخطيب ، الإمام جلال الدّين محمّد بن عبد الرحمن القزوينيّ ، التّلخيص في علوم البلاغة ، ضبط وشرح د. عبد الرحمن البرقوقيّ ، الطّبعة الأولى ،المكتبة التّجاريّة الكبرى ، مصر: 1904م .
7. الفراهيديّ ، الخليل بن أحمد ، معجم العين ، الجزء الأوّل ، تح : د. مهدي المخزوميّ ،د. إبراهيم السّامرائيّ، منشورات دار الهجرة ،إيران – قم : 1405هـ .
8. الكفويّ ، أبو البقاء، الكلّيّات ، تح د. عدنان درويش ومحمّد المصريّ ، الجزء الأوّل ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، 1981م .

المراجع :

1. أبو رغيف ، نوفل هلال، المستويات الجماليّة في نهج البلاغة – دراسة في شعريّة النّثر ، الطّبعة الثّانية ، بغداد ، 2011 م .
2. أنيس ، إبراهيم ، الأصوات اللغويّة ، دار الطّباعة الحديثة ، الطّبعة الخامسة ، مكتبة الأنجلو المصريّة – دار وهدان للطّباعة والنّشر 1979م.
3. الحفنيّ ، د. عبد المنعم ، معجم المصطلحات الصّوفيّة ، الطّبعة الأوّلى ، دار المسيرة ، بيروت ،1980م
4. سلام ، محمّد زغلول ، أثر القرآن في النّقد العربيّ ، دار المعارف ، القاهرة ، 1961م .
5. سلّوم ، د. تامر، أسرار الإيقاع في الشّعر العربيّ ، الطّبعة الأولى ، دار المرساة ، سوريا – اللاذقيّة ، 1994م.
6. الطّريحي ، د. محمّد حسين ، البنية الموسيقيّة في شعر المتنبيّ ، الطّبعة الأوّلى ، 2008م .
7. العشماويّ ، د. محمّد زكي، قضايا النّقد الأدبيّ بين القديم والحديث ، الهيئة المصريّة العامة للكتاب ، الإسكندريّة ، الطّبعة الثّالثة ، 1978م .

8. عصفور ، د. جابر ، الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب ، الطّبعة الثّانية ، دار التّنوير للطّباعة والنّشر ، بيروت – لبنان ، 1983م .

9. كحيل ، د. محمود ، النّزوع المثاليّ في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ ، دار القلم العربيّ – حلب ، الطّبعة الثّانية ، 2005م .

10. كوهين ، جان، بنية اللّغة الشّعريّة ، ترجمة محمّد الوليّ ، ومحمّد العمريّ ، دار توبقال للنّشر ، الدّار البيضاء ، الطّبعة الأولى ، 1986م ، ضمن سلسلة المعرفة الأدبيّة .

11. مطلوب ، أحمد ، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها ، مطبوعات المجمع العلميّ العراقيّ ، الطّبعة الأولى ، 1983م .

12. النّويهيّ ، د. محمّد ، الشّعر الجاهليّ ، الجزء الأوّل ، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر ، القاهرة – مصر. دون تاريخ .

13. وارين ، أوستن وويليك، رينيه ، نظريّة الأدب ، ترجمة محي الدّين صبحي – المجلس الأعَلَى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة – دمشق 1972م

14. اليمنيّ ، يحيى بن حمزة العلويّ ، الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، مطبعة المقتطف ، مصر ، الجزء الأوّل ، 1914م .